لباس الإحرام والتذكير بالأكفان

إنَّ عِبَرَ الحجِّ وفوائدَه لا تُحصَى، وكم فيه من الدروس النافعة والعِظات المؤثِّرة، ومن عظات الحجِّ وعبَره أنَّ المسلمَ إذا وصل إلى الميقات الذي وقَّته رسول الله صلى الله عليه وسلم للإحرام تجرَّد من ثيابه ولبس إزاراً على نصفه الأسفل، ورداءاً على نصفه الأعلى مِمَّا دون الرأس، وفي هذه الهيئة من اللباس يستوي الحُجَّاج، لا فرق بين الغنيِّ والفقير والرئيس والمرؤوس، وتساويهم في هذا اللباس يذكِّرُ بتساويهم جميعاً في لباس الأكفان بعد الموت، فإنَّ الكلَّ يُجَرَّدون من ملابسهم ويلفُّون بلفائف بيضاء لا فرق فيها بين غنيٍّ وفقير.

روى الإمام أحمد في مسنده عن سمُرة بن جندب رضي الله عنه أنَّ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: ((البسوا الثياب البيض، فإنَّها أطهرُ وأطيبُ، وكفِّنوا فيها موتاكم)) (١).

ولمَّا مات سيِّدُ ولد آدم صلى الله عليه وسلم كُفِّن في ثلاثة أثواب بيض من القطن ليس فيها قميص ولا عمامة، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كُفِّن في ثلاثة أثواب يمانيَّة بيض سَحوليَّة من كُرْسُف، ليس فيهنَّ قميصٌ ولا عمامة)) (٢).

وكلُّ مَن مات فهذا شأنه؛ يُغسَّل ويُجرَّد من ملابسه، ويُلفُّ بلفائف بيضاء، ثم يُصلَّى عليه، ثم يدرج في القبر.

والحاجُّ عندما يتجرَّد من لباسه في الميقات ويلبس الإحرام يتذكَّرُ هذه الحال ويتواردُ على ذهنه هذا المآل، ويتذكَّر الموتَ الذي به تنتهي الحياة الدنيوية وتبتدئ الحياةُ الأخرويَّة.

وكم هو عظيم ونافعٌ للعبد أن يتذكَّرَ الرحيل، وأن يتذكَّرَ مفارقةَ الأنيس والخليل، وأن يتذكَّرَ أنَّه ليس له من ماله إلاَّ الأكفان، أي: نصيبه في قبره من ماله، ثم مآلها إلى الخراب، يقول الشاعر:

نصيبُك مِمَّا تجمعُ الدَّهرَ كلَّه

رداءان تُلوى فيهما وحَنوطُ

ويقول الآخر:

هي القنـاعةُ لا تبغي بها بدلاً

فيها النعيـم وفيـها راحـة البـدن

انظر لمَن مَلَكَ الدنيا بأجمعها

هل راح منها بغير القطن والكَفَن(٣).

وقد صحَّ في الحديث عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: ((أكثروا ذكرَ هاذم اللَّذات)) يعني الموت(٤) ، وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: ((كفى بالموت واعظاً)).

ومَن تذكَّر الموتَ أقبل على الآخرة ولم تكن الدنيا أكبرَ همِّه ولا مبلغَ علمه، وذِكرُ الموت يردع عن المعاصي ويلين القلبَ القاسي، ويذهبُ الفرح بالدنيا ويهوِّن المصائبَ فيها.

ثم إنَّ كفَنَ الإنسان الذي يدخل معه في قبره لا ينفعه بشيء، ومآله إلى البِلَى، مع أنَّه الشيءُ الوحيد الذي يدخل معه في قبره من دنياه، والذي ينفع الإنسانَ في قبره هو عملُه الصالح، وقد ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: ((يتبع الميِّتَ ثلاثةٌ، فيرجع اثنان ويبقى واحد: يتبع أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجع أهلُه ومالُه، ويبقى عملُه)) (٥).

ومن المعلوم أنَّ الإنسانَ لا بدَّ له من أهل يُؤانسُهم، ومالٍ يعيش به، وهذان مفارقان له وهو مفارقٌ لهما ولا بدَّ، والسعيد من اتَّخذ من ذلك ما يكون عوناً له على الخير والطاعة، وأمَّا مَن اتَّخذ أهلاً ومالاً يشغله عن الله فهو خاسر، كما قالت الأعراب: (شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا)(٦)، وقال تعالى: (لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)(٧).

ومَن مات فإنَّه لا ينتفع من أهله وماله بشيء إلاَّ بدعاء أهله له واستغفارهم، وبما قدَّمه من ماله بين يديه، قال تعالى: (يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)(٨)، وقال تعالى: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ)(٩).

فكلُّ ما كان للإنسان من مال وأهل فإنَّه تاركُه وراء ظهره غيرُ منتفع منه بشيء إلاَّ دعوة من أهله أو نفقة قدَّمها من ماله، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلاَّ من ثلاث: إلاَّ من صدقة جارية، أو ولدٍ صالح يدعو له، أو علم يُنتفع به)) (١٠).

والأهل قد يدعون له وقد لا يدعون، والمال الذي كان يمتلكه لا ينتفع منه بشيء في قبره إلاَّ بما كان قدَّمه بين يديه، فإنَّه يَقْدَمُ عليه وهو داخلٌ في عمله الذي يصحبه في قبره، وما سوى ذلك من ماله قلَّ أو كثر فهو لورثته لا له، وهو إنَّما كان عليه بمثابة الحارس والخازن.

ففي صحيح مسلم عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((يقول ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلاَّ ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبست فأبليتَ، أو تصدَّقتَ فأمضيتَ)) (١١).

وفي صحيح البخاري عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((أيُّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله؟ قالوا: ما منَّا أحدٌ إلاَّ ماله أحبّ إليه، قال: فإنَّ ماله ما قدَّم، ومالَ وارثه ما أخَّر)) (١٢).

قال الله تعالى: (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) (١٣)، قال بعض السَّلف: ((أي في القبر)) يعني: أنَّ العمل الصالح يكون مهاداً لصاحبه في القبر، حيث لا

يكون للعبد من متاع الدنيا فراش ولا وساد ولا مهاد، بل كلٌّ عامل يفترش عملَه ويتوسَّده من خير أو شرٍّ[١٤].

وفي الحديث عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: ((قال لي جبريل: يا محمد عِش ما شئتَ فإنَّك ميِّت، وأحْبب مَن شئتَ فإنَّك مفارقُه، واعمل ما شئتَ فإنَّك مُلاقيه)) [١٥].

نسأل الله لنا جميعاً صلاح الأمر وحسن العاقبة، والتوفيق لما يحبُّه ويرضاه.

* * *

---

(١) المسند (٢٠١٥٤).

(٢) صحيح البخاري (١٢٦٤)، وصحيح مسلم (٩٤١).

(٣) انظر الأبيات في التذكرة للقرطبي (٢٨/١).

(٤) سنن الترمذي (٢٣٠٧)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٢١٠).

(٥) صحيح البخاري (٦٥١٤)، وصحيح مسلم (٢٩٦٠). وانظر شرح هذا الحديث في رسالة للحافظ ابن رجب مطبوعة بعنوان: جزء فيه الكلام على حديث يتبع الميت ثلاث.

(٦) سورة الفتح، الآية: ١١.

(٧) سورة المنافقون، الآية: ٩.

(٨) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٩) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(١٠) صحيح مسلم (١٦٣١).

(١١) صحيح مسلم (٢٩٥٨).

(١٢) صحيح البخاري (٦٤٤٢).

(١٣) سورة الروم، الآية: ٤٤.

(١٤) انظر رسالة ابن رجب: جزء فيه الكلام على حديث ((يتبع الميت ثلاث)) (ص:٤٠).

(١٥) رواه الطيالسي (١٨٦٢)، والحاكم (٣٢٥/٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٥٥).